قصة ألبانية :

المهـــد الذهبي ...

[مهداة للأستاذ الكبير كامل كيلاني]

نقلها الأديبان :

وهبي اسماعيل حقي وابراهيم خير الله

— ٤ —

أخذ « محمود » طريقه إلى بيته — بعد أن فارق فريداً — وهو يكاد يطير من شدة الفرح ، باقي التحية على من يقابله من إخوانه ، ويرد تحياتهم بثغر باسم ، ووجه باش ، وصوت يشيع فيه السرور ... وإن رأسه لميدان فسيح تتسابق فيه الأفكار حول المشروعات العمرانية والثقافية التي أراد أن يشق بها طريقه إلى الخلود والمجد ، فسيكون أول مكتشف يجلو عن جبين التاريخ الألباني العظيم ما غمض من حقيقته . وسيتسع بذلك أفق حياته ، ويصبح إنساناً آخر غير محمود المدرس الذي خرج في صباح هذا اليوم إلى المدرسة يعمل جاهداً طول نهاره ، ويعود متعباً مع الليل . سيصبح « مليونيراً » ترنو إليه العيون ، وتشير إليه الأصابع ، ويسير في ركابه الاحترام . وإنه لمشغول بهذه الأفكار إذ مر به صديقه فتحى ماشياً على حذر خشية أن تزلق رجله فيسقط في الوحل ، ولقد اختلس النظر إلى محمود على ضوء الكهرباء التي أنارت الطريق ، لكنه لم يخطر له على بال أن محموداً سيكون — بين عشية وضحاها — مذكوراً على كل لسان ، وموضوع حديث كل إنسان ، وأن اسمه سيتداول مع الأجيال المقبلة ، لما وفق إليه من اكتشافات غيرت وجه التاريخ ، وسجلته مع الخالدين ...

إن المظاهر الخارجية قد لا تعبر تعبيراً صادقا عما تنطوي عليه نفس الإنسان ، من نعيم أو شقاء ، أو حزن أو سرور ؛ فإن فتحى قد رأى محموداً ولم يلحظ فيه هذا التحول ، وكذلك لم تلحظه أمه ولا أخواته الثلاث عندما جلس معهن على المائدة ، ليؤنسهن ، ويسامرهن ، فقد تناول عشاءه في منزل فريد . ولقد رأينه أكثر سروراً منه في كل وقت ، ولكن لم يمتد بهن الخيال أبعد من أن نجاحه في عمله المدرسي وتمتعه بثقة أصدقائه هو الذي يضفي عليه ثوب هذا السرور دائما .

إن الإنسان ليضيق به المكان ، ولا يستطيع الاستقرار فيه إذا أقعده الفرح ، وكذلك كان محمود ؛ فقد استحال عليه أن يقنع نفسه بالبقاء في المنزل ، بعد أن فرغت أمه وأخواته من عشائهن ، وانصرفن لبعض الشئون ، فغادر البيت وليس له مقصد معين . ولما كان الوقت قريبا من شهر رمضان : والناس جادون في الاستعداد له ، فإن المحال التجارية والمقاهي كانت تعمل إلى وقت متأخر من الليل ، فراق لمحمود أن يذهب إلى المقهى ثانية يقضي فيه شطراً من هذا الليل ، وقدر أنه سيتلاقى — حتما — مع فريد ، فإنه لن يستطيع الصبر على الانتظار في البيت ، ولكنه أخطأ التقدير ، فلم يجد إلا صديقه « شفيقا » فحياه وقال له : هل أنت هنا وحدك ؟ فرد عليه شفيق التحية وقال : ما دمت قد حضرت فلن أكون وحدي .

ثم جلسا متقابلين ونظر محمود إلى شفيق وقال وهو يبتسم : إن ملامح وجهك ، ونبرات صوتك ، تدلنا على تغير طرأ عليك فماذا بك يا شفيق ؟

— لا شيء ! وكيف أتغير ؟

— لا أدري ! ولكنك لست كما أنت في كل يوم .

— إن الإنسان لا يدوم على حال واحدة ، وتلك سنة الطبيعة وناموس الوجود . وعسى الله أن يأتي بالفرج . وعند ما نطق شفيق بهذه العبارة اجتهد أن يملك زمام نفسه أمام نظرات محمود النفاذة إلى القلوب . ولكن محموداً وقد أراد التسلية ، وقتل الوقت ، فقد أمطر شفيقا وابلا من الأسئلة ؛ فقال له : ألست من أصدقائك ، ومن حقي أن أعرف ما حل بك ؛ فقد أستطيع أن أمد لك يد المساعدة ؟

— لم يحل بي مكروه ، والحمد لله . ثم لماذا تسألني هذا السؤال ؟

— لأني رأيتك هذا اليوم في الطريق مهموما ، وآية ذلك

أنك لم تحينا . فتحرك شفيق فى كرسيه فى حركة عصبية وقال فى شىء من الغضب : ذلك لأن لدى أشغالا هامة ، فليس صديقك فريد هو المشغول وحده .

— ولماذا تقحم فريداً فى هذا الكلام وهو ليس معنا .

— إنه متكبر ، يدل بثراء والده ، ويضع نفسه فى غير موضعها ، وأولى له أن يطرح هذا جانبا وإننى أمقته لذلك .

— لو تعلم عنه مثل ما أعلم ، ما خالجك شك فى سمو خلقه ، وصفاء نفسه ، إنه مثل من أمثلة المروءة والنبل .

— أنا لا أعلم عنه إلا أن ثراء والده أفسد خلقه ، ووأد مروءته ، وإن الغنى الذى يفاخر به ليس وقفا عليه ؛ فربما أصبح أناس آخرون فى وقت قريب أكثر منه ثراء ، وأيسر منه حالا

— « اشقودراه » كبيرة وبها كثير من الأغنياء .

— نعم ! ولكنى أقصد أن من الممكن أن يظهر فى سمائها أغنياء جدد فجأة لايستطيع الخيال أن يصل إلى ما يملكون من مال . فاضطرب قلب محمود خوفا من أن يكون شفيق قد التقى ببيرام وعلم من أخباره شيئا ، ولكنه اجتهد فى إخفاء تأثره وقال : نعم ! ذلك ممكن وميسور ، وإنه ليكفى الإنسان ليكون غنياً أن يربح « يانصيب دوبلين » .

— وما قيمة « اليانصيب » ؟ . إن سبلا كثيرة للغنى تنفتح أمامك ، إذا أسعدك الحظ ، وواتتك الظروف .

— وماذا تكون هذه السبل ؟ بربك دلنى على إحداها !

— ها أنت تسخر من كلامى ! ولكن حقا توجد طرق كثيرة

— أنا لا أنكر أنها توجد ! ولكنى أومن بأن الحظ لن يحالفك أبداً .

— وأنى لك ذلك ؟ ألأنه خدم صديقك فريداً ، أم ماذا ؟

— وما شأن فريد هنا ، لكل إنسان خطة فى الحياة .

— على كل حال ، سأحدثك بعد قليل . ثم سكتا وقتا تشتت فيه فكر محمود واعتقد أن شفيقا قد اشتم عبير الكنز — لا محالة — وأن بيراما — لا بد — وأن يكون قد خانهما . ولم يتحول عن هذا الاعتقاد إلا عند ما قال شفيق : هل تعرف شيئاً عن مادة « أبونوس » .

— نعم أعرفه ! ولماذا ؟

— ما قيمة هذا المعدن بين المادن الأخرى ؟

— إن قيمته عظيمة ! كالذهب تقريبا ، ولكن لماذا تسألنى عنه ؟ هل اكتشفت منجما ؟

— إن لم أكن قد اكتشفته فسأكتشفه قريبا . فقال محمود ضاحكا — بعد أن اطمأن أن بيرام لم يفلت من يدهم ، وأن شفيقا إنما يحلم بآبار من «أبونوس» : أرجوك ألا تنسانى ياشفيق ، ثم أخذ الحديث مجرى آخر إلى أن انتصف الليل فقام كل منهما إلى منزله . وقد آثر محمود أن يسلك إلى بيته طريقا طويلا يمر بمنزل فريد ، رجاء أن يقابله بيرام عائداً فإن ميعاده قد حان ، ولكنه لم يصادفه .

قضى محمود ليلة « نابغية » فقد أخذ موضعه من سريره ، ولكن النوم ضل طريقه إلى عينيه ، فلم يغمض له جفن . وقد تمثلت له حوادث النهار حقائق لا يعتورها شك ، ولا يتسرب إليها وهم . ولقد امتد به الخيال فذهب برافقه السيد عفت ونجله فريد إلى « دومن » وقابلوا بيراما فى بيته وأرشدهم إلى الكهف وقادهم فى مسالكه ورأوا بأنفسهم ما احتواه الكهف من ذهب نضار ، وتماثيل عجيبة ، انفسح لها مجال الفخر بأن يد الزمن عجزت أن تمتد لها بسوء طوال هذه القرون العديدة ، التى مرت بها ، وفى هذا دلالة على أن صانعها فى ذلك العهد الغابر قد ضرب فى جودة الفن بسهم وافر . وأن الألبان أهل حضارة قديمة ، ومدنية عريقة ، وهذا الكهف بما فيه شاهد عدل ، وحجة دامغة على من يدعى الإنكار .

وهاهى ذى الأزيار الكبيرة قد امتلأت بالذهب ولايعلم إلا الله وحده متى جمع هذا الذهب ؟ ومن أين جمع ؟ ومن جمعه ؟ فقد تكون الجنود الألبانية المنتصرة قد غنمته من عدو مغلوب فى ذلك العهد البعيد ، أو تكون الحكومة القائمة آنذاك قد استبدلت به الأسرى والسبايا التى عادت بها جيوشها المظفرة ، أو تكون قد جمعت من أفراد الشعب ظلما بأيدى حكام طغاة ضلت الرحمة طريقها إلى قلوبهم ...

وهاهى ذى قد زالت من الوجود الوسائل والغايات التى جمع بها ومن أجلها هذا الذهب ، وبقى هو ليبدأ اليوم صفحة جديدة فى حياة أناس آخرين لا صلة تربطهم — فى الواقع — بمن جمعه ، ولم يقدروا فى يوم ما أن القدر قد كتب لهم فى سجل حياتهم هذه السعادة ، وهذا النعيم .

ها هو ذا القنديل المعلق فى وسط الكهف يقرأ علينا من أخبار ذلك القصر العظيم الذى كان يشع فيه ضوؤه ، ويقص علينا من تاريخ أهله العجب العجيب ، فهؤلاء أمراء الأجناد وأبطال الحرب ينتظم عقدهم كل مساء إذا أوغل الليل ، يديرون

مع الحاكم خطط الهجوم على العدو ، ويتشاورون فى أنجع الطرق وأضمن الوسائل للتغلب عليه ، وإن عددهم ليتناقص واحداً واحداً على مر الأيام حتى لم يبق منهم أحد ، فقد فنوا جميعا ، ولحق بهم الملك بعد قليل — سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا. ولقد قام على أنقاضهم جماعة فهموا الحياة فهما آخر فكان وقتهم موزعا بين الرقص والغناء وغيرهما مما يشيع البهجة والسرور فى النفس ، ويمسح عن القلب ما يكون قد علق به مما يباعد بينه وبين الانشراح .

وقد طوى الزمن هؤلاء وأولئك فأصبحوا تاريخا يسرد وبقيت وحدى تذكاراً لذلك الماضى البعيد ...

المهد فى زاوية من زوايا الكهف يتحدث فى صلف عن أولئك الملوك الذين تأرجحوا فيه أطفالا وداعبوا فيه صغارهم حكاما كباراً ، وهم معقد رجاء الأمة ، وملتقى آمال الشعب .

دارت كل هذه الخواطر فى رأس محمود فباعدت بينه وبين النوم إلى أن طلعت الشمس ، فهب من سريره واستبدل ملابسه وأسرع إلى منزل فريد ، وكله شوق إلى رؤية ما استحضره بيرام من العينات .

ولكنه لما دخل على فريد ، ورأى الألم والحزن مرتسمين على صفحة وجهه ، والقلق والاضطراب فى حركاته وسكناته قال له : ماذا بك ؟ ألم يأت بيرام بعد ؟

— لقد انتظرته إلى طلوع الشمس . لكنه لم يأت .

— كيف ذلك ؟ أتراه كان يهزأ بنا ؟

— لا أدرى ! وإنى متعب جداً ، ولم أذق طعم الراحة طيلة الليل وأود أن أستريح فأذن لى ، فخرج محمود وترك فريداً يستعد للنوم . ولما كان فى الطريق غير بعيد عن منزل فريد رأى السيد لطفى يذهب ويجىء — فى طول الشارع وعرضه — كأنه يراقب من فى المنزل ، أو كأنه على موعد مع أحد ، فعجب من وجوده هذا الوقت المبكر فى هذا المكان ، الذى ليس لأحد فيه صلة به ، ثم فى سرعة البرق تذكر ما دار بينه وبين شفيق فى الليلة المنصرمة ، وبدأ يتسرب الشك إلى قلبه ، وكان قد حاذاه ، فحياه تحية الصباح ، فرد لطفى تحيته فى صوت مضطرب خافت ، وبدا عليه شىء من الارتباك ، فقد كان يود ألا يراه أحد من أصدقائه فى وقفته تلك . أما محمود فقد أسرع فى طريقه إلى المدرسة شارد التفكير ، حائر اللب ، يود أن يعرف لماذا تأخر بيرام ؟ ولماذا وقف لطفى أمام منزل فريد بالذات فى هذه الساعة المبكرة

وقد أحس فى نفسه شعورا قويا بأن شفيقا وصديقه لطفى إنما يقومان معا بعمل مشترك ، وليس بعيداً أن يكونا قد أوقعا بيراما فى الشرك . ولقد طغى هذا الشعور على محمود — وكان قريباً من المدرسة — فرأى أن من الحيطة ان يرجع ، ويقف فريدا على ما كان من شفيق ليلة أمس ، وأنه رأى السيد لطفى الآن يدور حول منزله ، وبطامه على إحساسه من أن شفيقا ولطفى يعملان معاً لغرض مشترك . وبينا هو عائد لمح من بعيد السيد لطفى يتحدث فى كثير من الاهتمام إلى قروى ربط رأسه بمنديل أحمر ستر كثيراً من وجهه ، بحيث يصعب على إنسان لم يكن رآه كثيراً — أن يعرف من هو ، ولكن محموداً أحس إحساساقويا أن هذا القروى لن يكون غير بيرام ، فاندفع نحوهما بغضب وقال بحدة :

— أين كنت يا بيرام ؟ لماذا لم تجىء الليلة كما وعدت ؟ أتكذب علينا ؟

— تمهل ياسيدى ! ولا تجعل للغضب سبيلا إلى قلبك ، فسأقص عليكم كل شىء .

وهنا تدخل السيد لطفى ، وقال لمحمود بصوت شاع فيه الغضب ... ... :

— إن هذا الرجل لا سلطان لك عليه ، فقد تكلم معى أولا وليس من حقك أن تقف معنا ، فامض فى طريقك ، ولا تتدخل فيما ليس من شأنك .

— كيف تقول إنه تكلم معك أولا ؟ إنه أكد الأيمان أنه لم يسبقنا إلى معرفة أمره أحد .

— لا أريد أن أعرف ماذا قال لكم ، ولكن أريد أن تفهم أنه مرتبط معى فقط .

— معك أنت ؟ قال محمود هذه الكلمة بغضب شديد ، دل عليه احمرار وجهه ، وبريق عينيه ، وتقلص شفتيه ، وخشونة صوته ثم ترامیا بألفاظ شديدة اللهجة قوية الوقع ... ولكن بيراما قد وضع حداً لهذا التراشق بالشتائم ؛ فقد صاح فيهما :

— مهلا أيها الفاضلان ! فلست مرتبطا مع أحد منكما ، فلا تقتتلا من أجلى ، فهمتى فى هذا المنزل . وأشار إلى منزل السيد عفت والد فريد : فقال محمود :

— حسن ! عليك أن تذهب إليه الآن .

فابتعد السيد لطفى عنهما وقال مهدداً متوعداً :

— اذهبا حيث شئتما ، وسنرى .

(البقية فى العدد القادم)

شعاب قلب

دروس نفسانية تحليلية

صور من صميم الحياة

تحايل قصصى على ذهن القارئ

عرض مشوق مرغب

بقلم

حبيب الزحلاوى

يطلب من إدارة الرسالة الثمن ١٥ عدا البريد

بادر باقتناء نسختك من كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً غير البريد

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

النشر فى محطات ومطبوعات المصلحة

لقد نجحت المصلحة فى ابتكار أحدث الوسائل وانتقاء أبرز الأماكن المعدة للنشر فأولت إهتماماً خاصاً بمحطاتها فنسقتها وغرست حولها الحدائق فزادت من حسن منظرها وبديع رونقها حتى أصبحت تضارع أعظم محطات العالم مما حدا إلى إقبال الجمهور والشركات على اختلاف أنواعها وأصحاب البيوتات التجارية إلى الإعلان فيها بأسعار غاية فى الاعتدال .

هذا فضلا عن المطبوعات والنشرات المختلفة التى تصدرها المصلحة من وقت لآخر وتوزعها داخل وخارج القطر ولا يخفى أن الإعلان فى تلك المطبوعات لا يقدر بثمن لأهميته وجليل فائدته .

ولزيادة الإستعلام خابروا . —

قسم النشر والإعلانات — بالإدارة العامة بمحطة مصر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)